أثر السياق القرآني في ورود الصفات الخبرية الموهمة للنقص والتغير

The effect of the Qur'anic context on the occurrence of false news attributes of deficiency and change

ياسر عبدالعزيز سيدوش
د. ظافر عبدالله محمد
جامعة الموصل- كلية التربية للعلوم الإنسانية

Yasser Abdulaziz Sidosh
Dr. Dhafer Abdullah Mohammad
University of Mosul - College of Education for Humanities

dhafer.abdulla@uomosul.edu.iq

تاريخ الاستلام ٢٠٢١/٦/٧ **تاريخ القبول** ٢٠٢١/٧/٢٦

الكلمات المفتاحية: السياق القرآني – الصفات الخبرية- الأخذ – الأسف-الخلة

Keywords: The Qur'anic context - predicate qualities - acceptance - regret - friendship

الملخص

تنوع أسلوب القران الكريم في الخطاب مصدر ثراء في المعاني والدلالات حيث نلحظ العدول من الماضي إلى المضارع وبالعكس من أجل دقة التعبير وكذلك حينما يكون ظاهره الخبر والمقصود به الإنشاء، ونحو ذلك. وهذا يقتضي الالمام بقواعد التفسير ولاسيما السياق القرآني ولما كانت دلالة السياق القرآني من اهم القرائن التي تدل وتشير على مراد الآية الكريمة ، وتعين على تفسيرها ، واثبات المعنى المراد دون غيره ، فان المفسرين اهتموا بمنهج السياق ، وعدّوا كل قول لا يؤيده السياق لا عبرة به ، ولا يعول عليه . لذا احببت ان يكون موضوع بحثي عن (أثر السياق القرآني في ورود الصفات الخبرية الموهمة للنقص والتغير- صفات (الاسف والخلة) انموذجا) . حيث تضمنت خطة البحث تمهيدا بتعريف السياق لغة واصطلاحا واهمية السياق وأنواعه ، وتعريف الصفات الخبرية . ثم تناولت دراسة اثر الساق القرآني في ورود الصفات الخبرية الموهمة للنقص والتغير ، مستعينا بأقوال المفسرين وآراء العلماء . ثم خاتمة لخصت فيها أهم ما ذكر.

Abstract

Importance context in coming adjective predicate in the Holy Quran, we talk about its importance in society and its effective role in raising the level of civilization among people. We are not talking about a secondary or subsidiary issue in Islam, but rather we are talking about a fundamental issue which is one of the basics of this religion. Internal and external peace are among the axioms of the establishment of any system in any nation, hence the importance of our research tagged (Importance context in coming adjective predicate in the Holy Quran), to write in order to pave the way and matter .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد:

فقد مَنَّ الله عليَّ بفضله وهديه إذ وفقني في إعداد هذا البحث الذي جعلت النّصَّ القرآنيَّ ميدانًا لمادته العلمية، إيمانًا منّي بأنَّ آياته و لُغَة تنزيله قد حوت من الفصاحة والبيان، ورقّة الألفاظ، و دقّة التعبير، ما يعجز البشر عن مضارعته أو الإتيان بمثله . كما حوت نصوصه أساليب العربية و أغراضها في التعبير عن المعاني، و تصوير الأفكار و المشاعر، و حكاية الأحوال، و نقل الأخبار، كلُّ ذلك بلفظ دالٍّ على معناه، و معنى رصين لا يقلّ عن جمال لفظه و مرمى غرضه .

ولما كانت دلالة السياق القرآني من اهم القرائن التي تدل وتشير على مراد الآية الكريمة ، وتعين على تفسيرها ، واثبات المعنى المراد دون غيره ، فان المفسرين اهتموا بمنهج السياق ، وعدّوا كل قول لا يؤيده السياق لا عبرة به ، ولا يعول عليه . لذا احببت ان يكون موضوع بحثي عن (أثر السياق القرآني في ورود الصفات الخبرية الموهمة للنقص والتغير– صفات الاخذ والاسف والخلة انموذجا) . ومنهجية العمل حيث نقف على احصاء الآيات التي تضمنت ورود الصفة الخبرية في القرآن الكريم كله ثم نشرع بالحديث عن السياق القرآني وما ورد فيه من الاسباب والمناسبات والعلل وطأت ومهدت لورود هذه الصفة الخبرية

حيث تضمنت خطة البحث تمهيدا بتعريف السياق لغة واصطلاحا واهمية السياق وأنواعه ، وتعريف الصفات الخبرية .

ثم نتناول دراسة اثر الساق القرآني في ورود الصفات الخبرية الموهمة للنقص والتغير ، مستعينا بأقوال المفسرين وآراء العلماء وفيه نورد ثلاثة مطالب

المطلب الاول الصفة الخبرية (الاخذ) والمطلب الثاني الصفة الخبرية (الاسف) والمطلب الثالث الصفة الخبرية (الخلة)

. ثم خاتمة لخصت فيها أهم ما ذكر.

التمهيد :

القسم الأول : السياق لغة واصطلاحا وأهميته وأنواعه :

-السياق لغة :

السياق مصدر: ساقَ يَسوق، سَوْقًا وسِياقًا ، وأصل السِّياقِ سِواق، قُلِبَت الواو ياء لكسرة السِّين[١] ، ويدل السياق في اللغة على معان عدة ، منها ما ذكره ابن فارس ت ٣٩٠هـ بقوله: السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حَدْوُ الشَّيء، يقال ساقه يسوقه سَوقاً، والسَّيِّقة: ما استيق من الدوابّ ، ويقال سقتُ إلى امرأتي صَدَاقها، وأَسَقْتُهُ، والسُّوق مشتقّةٌ من هذا، لما يُساق إليها من كلِّ شيء، والجمع أسواق، والساق للإنسان وغيره، والجمع سُوق، إنّما سمّيت بذلك ، لأنَّ الماشي ينْساق عليها [٢] .

السياق اصطلاحا : هو تتابع المفردات والجمل، والتراكيب القرآنية المترابطة لأداء المعنى، فضلا عن قرائن الحال المقام [٣] .

-أهمية السياق القرآني :

تحدث العلماء كثيراً عن أهمية السياق القرآني ودوره في بيان المعاني ومدلولاتها، واستعمالها بحسب السياق والغرض الذي سيق له الكلام منها :

١-السياق القرآني ودوره المهم في بيان معنى الخطاب :

إن الناظر في كتب العلماء يجدها زاخرة بالعديد من الأقوال التي تجسد أهمية السياق القرآني، ودوره في بيان معنى الخطاب، حيث نقل عن التابعي الجليل مسلم بن يسار -رحمه الله- ت١٠٠هـ انه قال : اذا حدثت عن الله حديثا فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده [٤]، إذ إنّ السياق والقرائن هي التي تدل على مراد المتكلم من كلامه وتبين معنى الخطاب الحقيقي والمجازي وغيرها من الاساليب، قال السيوطي ت٩١١هـ : أثناء بيانه للشروط الواجبة على المفسر: وعليه بمراعاة المعنى الحقيقي والمجازي، ومراعاة التأليف، والغرض الذي سيق له الكلام [٥]،وقد جعل الدكتور محمد دراز فهم السياق على رأس قائمة الشروط الواجب على المفسر الإلمام بها، إذ قال : إن السياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني تقضي بأن يكون

---

(١) ينظر : تاج العروس من جواهر القاموس ، الزَّبيدي : ٢٥/ ٤٧٥ .

(٢) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس : ٣/ ١١٧ .

(٣) ينظر :السياق القرآني وأثره في تفسير المدرسة العقلية الحديثة، سعيد محمد الشهراني رسالة دكتوراه غير مطبوعة مقدمة لجامعة أم القرى : ٢٢ .

(٤) فضائل القرآن، أبو عبيد القاسم بن سلام : ٣ .

(٥) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي : ٤/ ٢٢٧ .

هذا النحو من الدرس هو الخطوة الأولى فيه، فلا يتقدم الناظر إلى البحث في الصلات الموضعية بين جزء وجزء منه إلا بعد أن يحكم النظر في السورة كلها بإحصاء أجزائها، وضبط مقاصدها على وجه يكون معوانا له على السير في تلك التفاصيل عن بينة [١] .

٢-أهمية السياق القرآني في ترجيح أحد المعاني المحتملة للآية :

يعد السياق القرآني الذي ترد فيه الألفاظ من أكبر العوامل المحددة للدلالة، ومعرفة أي مدلولاتها أولى بالتقديم، والقبول، وترجيح المحتملات، قال ابن جزي الكلبي ت هـ في معرض ذكره لأوجه الترجيح في التفسير : أن يشهد بصحة القول سياق الكلام ,ويدل عليه ما قبله وما بعده [٢]، فمن تدبر القرآن الكريم وتدبر ما قبل الآية وما بعدها، وعرف مقصود القرآن، تبين له المراد، و وترجحت له المحتملات، قال العز بن عبد السلام ت ٦٦٠هـ : السياق مرشد إلى تبين المجملات، وترجيح المحتملات، وتقرير الواضحات، وكل ذلك بعرف الاستعمال، فكل صفة وقعت في سياق المدح كانت مدحًا، وكل صفة وقعت في سياق الذم كانت ذما، فما كان مدحاً بالوضع فوقع في سياق الذم صار ذمًا واستهزاء وتهكما بعرف الاستعمال، مثاله : ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ [الدخان: ٤٩] أي : الذليل المهان لوقوع ذلك في سياق الذم [٣] . فلا يمكن للاحتمالات اللغوية وحدها أن تكشف المعنى، وترجح أصح الاحتمالات وإنما لابد من اقترانها بدلالة السياق حتى يتعين المراد من هذه الاحتمالات اللغوية .

٣-أهمية السياق القرآني في بيان المناسبات على اختلاف أنواعها :

علم المناسبات متنوع في القران الكريم من حيث المناسبة بين السور، والمناسبة بين الآيات، والمناسبة بين القصص، والمناسبة بين كلمات السورة الواحدة، والمناسبة بين السورة واسمها. يقول السيوطي : الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن: هو أن تنظر الغرض الذي سيقت له السورة [٤]، فجعل السياق القرآني معيارا للوقوف على المناسبة التي يراد بيانها، ومن أمثلة ذلك ما أورده ابن الزبير الغرناطي ت ٧٠٨هـ في قوله تعالى : (قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ) القصص: ٧١، ثم قال تعالى:(قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ) القصص: ٧٢، للسائل أن يسأل لم قدن الليل؟ ولم ختمت الأولى بقوله: أَفَلَا تَسۡمَعُونَ، والثانية بقوله: أَفَلَا تُبۡصِرُونَ؟

---

(١) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمد عبدالله دراز : ١٩٢ .

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الكلبي: ١/ ٩ .

(٣) الإمام في بيان أدلة الأحكام، العز بن عبد السلام : ١٥٩ ، ١٦٠ .

(٤) الإتقان في علوم القرآن : ٣/ ٣٧٦ .

والجواب عن الأول أن تقديم الليل على النهار جار على ما بنت العرب عليه حساب شهورها من تقديم الليل وجعل النهار تابعاً له، ولم يرد في كتاب الله تعالى على كثرة ترداده إلا ذلك.
والجواب عن السؤال الثاني: أن قوله تعالى في آية الأولى: أَفَلَا تَسْمَعُونَ مناسب للمدرك ليلاً من ضربي ما يعتبر به من المسموعات والمبصرات، إذ الليل حائل دون المبصرات، وإنما تدرك فيه المسموعات، لأن ظلمة الليل غير مانعة من إدراكها، فجيء بما يناسب، وجيء مع ذكر النهار بما يناسب أيضاً، فقيل: أَفَلَا تُبْصِرُونَ، لأن المبصرات تدرك نهاراً ولا تدرك ليلاً، فجيء مع كل بما يناسب، والله أعلم [١] .

-أنواع السياق القرآني :

وردت عن الباحثين عدة دراسات عن السياق،لاسيما السياق القرآني،وكل منهم تناوله بما يناسب موضوع بحثه وفكرته ، فقد ذكرت أنواع متعددة من حيث العموم والخصوص عن السياق القرآني ، فسياق السورة يشكل وحدتها المتكاملة ، وسياق المقطع يعد أحد المحاور الرئيسة للسورة أما سياق الآية فيرتبط ارتباطا وثيقا بسياق المقطع ، ويعد إحدى لبنات بنائه ، وتتحدى مباني الآية حول مقطعها ، والمقطع بدوره يشكل الأساسي في جسم السورة ، لأن جميع المقاطع تدور حول فلك السورة الواحدة ، الذي يمثل موضوعها الذي سيقت الموضوعات والمعاني لأجله ، فتحصل لدينا أربعة أنواع : سياق الآية والمقطع والسورة والقرآن الكريم . وسندرس هذه الانواع معززة بالأمثلة :

اولا – سياق الآية : ترد في الآية الكريمة بعض المفردات تدل على أكثر من معنى وهذه المعاني كلها تكون محتملةً في تفسير اللفظة، وتحتاج الى تفسير،فننظر الى سياق الآية ما سبق هذه اللفظة وما تلاها حيث يتحدد معناها ويتضح تفسيرها، ويعرف المراد منها، ويقطع بإرادة أحد معانيها المحتملة في هذا الموضوع، وينتفي تعدد المعاني واشتراكه وتعميمه، وفي هذا النوع من أنواع السياق يكون النظر في سياق الآية سباقها ولحاقها، دون تجاوز ذلك إلى ما سبقها أو لحقها من آيات، لتحديد واقتناص المعنى المراد لأحد المفردات من خلال معانيها المتعددة والمحتملة[٢] ، ونأخذ مثالا على ذلك : كلمة الاحصان تدل على معان متعددة إذ تطلق على الإسلام، والعفاف، والحرية، والتزويج[٣]، وسياق الآية الكريمة يحدد معناها، ونلحظ ذلك في قوله تعالى : فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ

(١) ملاك التأويل، بن الزبير الغرناطي : ٣٨٦ .

(٢) ينظر : السياق القرآني واثره في التفسير دراسة نظرية وتطبيقية من خلال تفسير ابن كثير رسالة ماجستير، عبدالرحمن عبدالله المطيري : ١٠٦.

(٣) ينظر : المفردات في غريب القرآن : ٢٣٩ .

مِنَ الْعَذَابِ النساء : ٢٥، قد رجح بعض العلماء معنى التزويج بدلالة السياق، ذكر ابن كثير في تفسير معنىالاحصان انه يدل على أكثر من معنى، فقال: واختلفوا فيه على قولين: أحدهما: أن المراد بالإحصان هاهنا الإسلام....وقيل: المراد به هاهنا: التزويج [١] ، وقد رجح –رحمه الله– معنى الإحصان في الآية الكريمة بالتزويج بدلالة السياق الآية إذ يقول : والأظهر –والله أعلم–أن المراد بالإحصان هاهنا التزويج؛ لأن سياق الآية يدل عليه، إذ يقول سبحانه وتعالى: { وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِّ } والله أعلم ، والآية الكريمة سياقها كلها في الفتيات المؤمنات، فتعين أن المراد بقوله: {فإذا أحصن} أي: تزوجن، كما فسره ابن عباس ومن تبعه..[٢].

ثانيا – سياق النص أو المقطع : وهو ما اتحدت فيه آيات كريمة بغرض خاص ومعنى محدد يجمعها ويميزها عن غيرها[٣]، وإن هذه المعاني تنتسق في السورة كما تنتسق الحجرات في البنيان؟ لا. بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان، فبين كل قطعة وجارتها رباط موضعي من أنفسهما، كما يلتقي العظمان عند المفصل، ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائح تحيط بهما عن كثب، كما يشتبك العضوان بالشرايين والعروق والأعصاب، ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين، وتؤدي بمجموعها غرضًا خاصًا، كما يأخذ الجسم قوامًا واحدًا، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد، مع اختلاف وظائفه العضوية [٤] . ونجد ذلك واضحا في سياق القصص القرآني وبعض التشريعات، والموضوعات الاخرى .

ومثال ذلك، قوله تعالى : إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ البروج : ١٣، حيث اختلف في تفسيرها على قولين : الأول : ان معناها أن الله تعالى يبتدئ خلق الخلق ثم يعيدهم يوم القيامة، والثاني : أن معناها ان الله تعالى يبدئ العذاب في الدنيا ثم يعيده عليهم في الآخرة[٥] .

وقد رجح النحاس هذا التفسير الاخير، فقال : وهذا أشبه بالمعنى لأن سياق القصة أنهم أحرقوا في الدنيا ولهم عذاب جهنم [٦] .

ثالثا – سياق السورة : لقد اعتنى العلماء بسياق السورة، وذلك من خلال النظر إلى مناسبة كل آية، أو مقطع في السورة الواحدة مع ما قبلها، او بعدها من أول السورة إلى آخرها ؛

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير : ٢/ ٢٦١– ٢٦٢ .

(٢) المصدر السابق : ٢/ ٢٦٢ .

(٣) ينظر : السياق القرآني واثره في التفسير دراسة نظرية وتطبيقية من خلال تفسير ابن كثير رسالة ماجستير : ١٠٧ .

(٤) النبأ العظيم : ١٥٥ .

(٥) ينظر : إعراب القرآن، أبو جعفر النَّحَّاس : ٥/ ١٢١.

(٦) المصدر السابق : ٥/ ١٢١ .

ليستخلص الغرض أو الاغراض من السورة "فتتناسق أوضاعها، وتتآلف عناصرها، ويأخذ بعضها بُحَجز بعض، حتى إنها لتنتظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها" ذات محور عام، وفي هذا المقام قال سيد قطب في بداية سورة البقرة : " يلحظ من يعيش في ظلال القرآن أن لكل سورة من سور القرآن شخصية متميزة، شخصية لها روح يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حي مميز الملامح السمات الأنفاس، لها موضوع رئيس أو عدة موضوعات رئيسة مشدودة أو محور خاص ... وهذا طابع عام في سور القرآن جميعا، ولا يشذ عن هذه القاعدة طوال السور كهذه السورة[١] . ومن امثلة سياق السورة ما قاله البقاعي ت ٨٨٥هـ في حديثه عن سورة الفاتحة أن الغرض الأساسي الذي سيقت له الفاتحة هو إثبات استحقاق الله تعالى لجميع المحامد وصفات الكمال واختصاصه بملك الدنيا والآخرة، باستحقاق العبادة والاستعانة بالسؤال في المن بإلزام الصراط الفائزين الإنقاذ من الطريق للهالكين مختصا بذلك كله ومدار ذلك كله مراقبة العباد لربهم لإفراده بالعبادة، فهو مقصود الفاتحة بالذات[٢] ، ولا يخفى على بصائر المتدبرين مقاصد النصوص التي عليها بنيان السورة حتى لو تعددت قضاياها واجزاؤها وآياتها .

رابعا – سياق القرآن : فهم السياق القرآني مهم للوقوف على مراد الله تعالى في كتابه العزيز، حيث يقصد بالسياق القرآني أمران :

١ – الأغراض والمقاصد الأساسية التي تدور عليها جميع معاني القرآن، إلى جانب النظم الإعجازي والأسلوب البياني الذي يشيع في جميع تعبيراته، الأمر الذي يؤكد ضرورة الإلمام بهذا الأسلوب، ومعرفة خصائصه، مع معرفة الأغراض والمقاصد الكلية، والاتجاهات العامة الثابتة في القرآن الكريم.

٢– الآيات والمواضع التي تتشابه في موضوعها مع اختلاف يسير في طريقة سردها ، وترتيب كلماتها لمناسبة المقام، ولحكمة بلاغية تتصل بأغراض السورة [٣] .

فقد تضمن القرآن الكريم مقاصد جليلة وأغراضا نبيلة ، مبنية على مصالح العباد في دنياهم وأخراهم ، ومتضمنة لأسباب السعادة في المعاش والمعاد، وفهم هذه المقاصد والأغراض الأساسية لنزول القرآن الكريم أمر لابد منه عند المفسر لكلام الله –عز وجل–، والإخلال به يؤدي إلى الوقوع في الخطأ عند تفسير كلام الله –عز وجل–، يقول الشاطبي : قال تعالى :

---

(١) في ظلال القرآن : ١ / ٢٧.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي : ١ / ٢٠ – ٢١ .

(٣) دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم :٨٨.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ سورة محمد : ٢٤ فالتدبر إنما يكون لمن التفت إلى المقاصد، وذلك ظاهر في أنهم أعرضوا عن مقاصد القرآن؛ فلم يحصل منهم تدبر [١].

لان معرفة المقاصد يجعل الإنسان المتعلم في فهم كتاب يتصور آياته تصورا موضوعيا مقاصديا فيربط بين أجزاء الكلام من اوله الى آخره في سياق واحد ومقصد واخد هي تحقيق لما اراد الله في كتابه، وقد لخص ابن عاشور مقاصد القران الكريم في ثمانية أمور، وهي[٢] :

الأول: إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح، وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق .

الثاني: تهذيب الأخلاق قال تعالى: وإنك لعلى خلق عظيم [القلم: ٤] .

الثالث: التشريع وهو الأحكام خاصة وعامة.

الرابع: سياسة الأمة وهو باب عظيم في القرآن القصد منه صلاح الأمة وحفظ نظامها .

الخامس: القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم .

السادس: التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين، وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها .

السابع: المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير .

الثامن: الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول –صلى الله عليه وسلم– .

ونمثل لمقاصد القران في سورة الفاتحة إذ يقول ابن عاشور : وقد ذكروا لتسمية الفاتحة أم القرآن وجوها ثلاثة: .... .. الثاني: أنها تشتمل محتوياتها على أنواع مقاصد القرآن وهي ثلاثة أنواع: الثناء على الله ثناء جامعا لوصفه بجميع المحامد وتنزيهه عن جميع النقائص، ولإثبات تفرده بالإلهية وإثبات البعث والجزاء وذلك من قوله: الحمد لله إلى قوله: ملك يوم الدين، والأوامر والنواهي من قوله: إياك نعبد، والوعد والوعيد من قوله: صراط الذين إلى آخرها، فهذه هي أنواع مقاصد القرآن كله، وغيرها تكملات لها لأن القصد من القرآن إبلاغ مقاصده الأصلية وهي صلاح الدارين وذلك يحصل بالأوامر والنواهي، ولما توقفت الأوامر والنواهي على معرفة الآمر وأنه الله الواجب وجوده خالق الخلق لزم تحقيق معنى الصفات، ولما توقف تمام الامتثال على الرجاء في الثواب والخوف من العقاب لزم تحقق الوعد والوعيد ، والفاتحة مشتملة على هاته الأنواع فإن قوله: الحمد لله إلى قوله: يوم الدين حمد وثناء، وقوله: إياك نعبد إلى قوله: المستقيم من نوع الأوامر والنواهي، وقوله: صراط الذين إلى آخرها من نوع الوعد والوعيد مع أن ذكر المغضوب عليهم والضالين يشير أيضا إلى نوع قصص القرآن، وقد يؤيد هذا الوجه بما ورد في الصحيح في: قل هو الله أحد [الإخلاص: ١] أنها تعدل ثلث القرآن لأن ألفاظها كلها أثناء على الله تعالى [٣] .

---

(١)الموافقات في أصول الفقه، الشاطبي : ٤ / ٢٠٩.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور : ١ / ٤٠ – ٤١ .

(٣) التحرير والتنوير : ١/ ١٣٣ .

القسم الثاني : التعريف بالصفات الالهية مع بيان الفرق بينها وبين الأسماء .

اولا : الصفة لغة و اصطلاحا .

الصِفَة لغة: مفرد: مصدر وصَفَ. يصِف، وَصْفًا وصِفَةً والهاء عوض من الواو. بمعنى تحلية الشيء[١]، قال ابن فارس : وصف الواو والصاد والفاء: أصلٌ واحد، هو تَحْلِيَةُ الشَّيء. ووصَفْتُه أصِفُه وَصْفاً، والصِّفَة: الأَمَارة اللاَّزِمةُ للشّيء، كما يقال وَزَنتُه وَزْناً، والزِّنَة: قَدْرُ الشَّيء. يقال اتَّصَفَ الشَّيءُ في عَينِ النّاظر: احتَملَ أن يُوصَف [٢]،ووصَف الشَّيءَ، ووصَف فلانًا، أي : نعَته بما فيه : وصَفه بالشَّجاعة . والصفة : علامة يُعرف بها الموصوف "له صفة الكرم".

الصفة اصطلاحًا: هي ما دلت على معنى زائد على الذات [٣] .

ثانيا–الفرق بين الصفة والوصف والنعت والاسم .

١–الصفة والنعت : نلحظ ورود النعت في اللغة بمعنى الصفة، قال ابن فارس : النَّعْتُ، وَهُوَ وَصْفُكَ الشَّيْءَ بِمَا فِيهِ مِنْ حُسْنٍ. كَذَا قَالَهُ الْخَلِيلُ[٤]، وقريب من ذلك ما قاله ابن منظور : النَّعْتُ وَصْفُكَ الشيءَ تَنْعَتُه بما فيه وتُبالِغُ في وَصْفه[٥]، وذكر أبوهلال العسكري ت٣٩٥هـ عن البعض أن الصفة أَعم من النَّعْت، ثم بين أن معنييهما متقارب، أو لا فرق بينهما أصلا، وهذا ما قاله : أَن النَّعْت هُوَ مَا يظْهر من الصِّفَات ويشتهر .....لأَن النَّعْت يُفِيد من الْمعَانِي الَّتِي ذَكرنَاهَا مَا لَا تفيده الصّفة ثمَّ قد تتداخل الصّفة والنعت فَيَقَع كل وَاحِد مِنْهُمَا مَوضِع الآخر لتقارب معنييهما ويجوز أَن يُقَال الصّفة لُغَة والنعت لُغَة أُخْرَى وَلَا فرق بَينهمَا فِي الْمَعْنى[٦]، وقال الجوهري أن مصطلحي الصفة والنعت لا فرق بينهما في النحو : لأنَّ الصفة عندهم هي النعت [٧]، في حين استعمل الطبري في أحد مواضع التفسير النعت والصفة بمعنى واحد دون تفريق بينهما ففي قوله تعالى : قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ

---

(١) الصحاح ٤/ ١٤٣٨.

(٢) مقاييس ٦/ ١١٥ .

(٣) شرح جوهرة التوحيد ، البيجوري : ١٤٦ .

(٤) معجم مقاييس اللغة : ٥ / ٤٤٨ .

(٥) لسان العرب : ٦ / ٤٤٧٠ .

(٦) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري : ٣٠ .

(٧) الصحاح تاج العربية : ٤ /١٤٣٩ .

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرۡضِ الانعام : ١٤ قال : أشيئًا غير الله فاطر السماوات والأرض أتخذ وليا؟ ففاطر السماوات، من نعت الله وصفته، ولذلك خُفض [١] .

٢-الصفة والوصف : الصفة والوصف مترادفان عند أهل اللغة، وكل منهما مصدر في الاصل للفعل وصَفَ ، يصِف، كالوعد والعدة[٢] ، وعلماء الكلام فرقوا بين الوصف والصفة، فبينوا أن الوصف : يقوم بالواصف، فهو كلام الواصف ، والصفة : تقوم بالموصوف، فهي المعنى القائم بذات الموصوف .

قال الباقلاني ت ٤٠٣هـ : أما الصّفة فَهِيَ الشَّيْء الَّذِي يُوجد بالموصوف أَو يكون لَهُ ويكسبه الْوَصْف الَّذِي هُوَ النَّعْت الَّذِي يصدر عَن الصّفة ..... وَأما الْوَصْف فَهُوَ قَول الواصف لله تَعَالَى وَلغيره بِأَنَّهُ عَالم حَيّ قَادر منعم متفضل وَهَذَا الْوَصْف الَّذِي هُوَ كَلَام مسموع أَو عبارَة عَنهُ غير الصّفة الْقَائِمَة بِاللَّه تَعَالَى الَّتِي لوجودها بِهِ يكون عَالما وقادرا ومريدا وَكَذَلِكَ قَوْلنَا زيد حَيّ عَالم قَادر هُوَ وصف لزيد وَخبر عَن كَونه على مَا اقْتَضَاهُ وجود الصِّفَات بِهِ وَهُوَ قَول يُمكن أَن يدْخلهُ الصدْق وَالْكذب وَعلم زيد وَقدرته هما صفتان لَهُ موجودتان بِذَاتِهِ يصدر الْوَصْف وَالِاسْم عَنْهُمَا وَلَا يُمكن دُخُول الصدْق وَالْكذب فيهمَا[٣] .

٣-الفرق بين الصفة والاسم : الاسم في اللغة : مَا يعرف بِهِ الشَّيْء ويستدل بِهِ عَلَيْهِ جوهرا كان أو عرضا . والاصل الاشتقاقي للاسم أنه من سِمْوٌ كعلم أي : إِنَّه مُشْتَقّ من سما يسمو، ومصدره السمو وهو العلو،لِأَنَّهُ تَنْوِيهٌ وَدَلَالَةٌ عَلَى الْمَعْنَى، واحد الأسماء، وقيل أصله من السمة أي : العلامة،وهي مصدر للفعل : وسم يسم، ووسمه : أعلمه[٤] .

وفي النحو الاسم : مَا دلّ على معنى فِي نَفسه غير مقترن بِزَمن[٥] .

وورد في القران الكريم استعمال اسماء الله الحسنى قال تعالى : قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ الاسراء : ١١٠ .

فالاسم غير الصفة لان الصفة ما كان من الاسماء مخصصا مفيدا مثل زيد الظريف وعمرو العاقل، وليس الاسم كذلك فكل صفة اسم وليس كل اسم صفة [٦] .

---

(١) جامع البيان : ١١ / ٢٨٢ .

(٢) ينظر : الصحاح تاج اللغة ٤ / ١٤٣٨.

(٣) تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل، الباقلاني : ٢٤٤ – ٢٤٥ .

(٤) ينظر: مقاييس اللغة : ٣/ ٩٩،والصحاح تاج اللغة : ٦/ ٢٣٨٣ ، والكليات، أبو البقاء الكفوي : ٨٣ .

(٥) ينظر: شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب،ابن هشام : ١٤٤ .

(٦)الفروق اللغوية : ٣١٤-٣١٥ .

إذ الاسم تضمن أمرين ذات، وما قام بها من الصفات، فأسماء الله تعالى دلت على ذاته تعالى مع صفات الكمال القائمة به، مثل : العليم، الحكيم، السميع، فان هذه الاسماء دلت على ذات الله، وعلى ما قام بها من العلم والحكمة والسمع، وغيرها، في حين الصفة تدل على أمر واحد وهو نعت الكمال القائم بالذات، كالعلم والحكمة، والسمع، وغيرها فالاسم تضمن امرين في حين الصفة تضمنت أمرا واحدا .

تعريف الصفات الخبرية : فهي الصفات التي دل على ثبوتها له –تعالى– ، الخبر من غير استناد الى نظر عقلي[١] .

وسندرس هذه المطاليب الثلاث عن الصفات الخبرية الدالة على التغير الوارد في هذا الجدول ادناه

/ الجدول رقم ١ يبين ألفاظ وعدد ورود ومواضع الصفات الخبرية الموهمة للنقص والتغير في القرآن الكريم .

ت	الالفاظ	عدد الورود	السورة ورقم الآية
١	الاخذ	١	الاعراف ١٧٢
٢	الاجابة	٣	ال عمران ١٩٥ – هود ٦١ – البقرة ١٨٦
٣	الاستهزاء بالكافرين	٢	البقرة ١٤–١٥
٤	الاسف	١	الزخرف ٥٥
٥	الانتقام من المجرمين	٢	المائدة ٩٥ – السجدة ٢٢
٦	البطش	٣	الدخان ١٦ – القمر ٣٦ – البروج ١٢
٧	التجلي	١	الاعراف ١٤٣
٨	التفرغ	١	الرحمن ٣١
٩	الحب	٣	البقرة ١٩٥ –٢٢٢ المائدة ٥٤
١٠	الحنان	١	مريم ١٣
١١	الحياء والاستحياء	٢	البقرة ٢٦– الاحزاب ٥٣
١٢	الخداع لمن خادعه	١	النساء ١٤٢
١٣	الخلة	١	النساء ١٢٥

(١) ينظر : حاشية الباجوري على جوهرة التوحيد ، الباجوري : ١٥٥ .

ت	الالفاظ	عدد الورود	السورة ورقم الآية
١٤	الرأفة	٢	النور ٢٠– الحشر ١٠
١٥	الرضا	٢	المائدة ١١٩– الفتح ١٨
١٦	السخرية بالكافرين	١	التوبة ٧٩
١٧	السخط والسخط	٢	المائدة ٨٠ –محمد ٢٨
١٨	الصعود	١	فاطر ١٠
١٩	العجب	١	الرعد ٥
٢٠	العروج	١	المعارج ٤
٢١	الغضب	٤	النور ٩– طه ٨١– الممتحنة ١٣ – المجادلة ١٤
٢٢	الكبر والكبرياء	٢	الحشر ٢٣– الجاثية ٣٧
٢٣	الكره	٢	التوبة ٤٦– الاسراء ٣٨
٢٤	الكيد لأعدائه	٤	يوسف –٧٦ الطارق ١٦ –الاعراف ١٨٣ – القلم ٤٥
٢٥	المقت	١	غافر ١٠
٢٦	المكر على من يمكر به	٣	النمل ٥٠ – ال عمران ٥٤– الرعد ٤٢
٢٧	المماحلة والمحال	١	الرعد ١٣
٢٨	النسيان	٤	التوبة ٦٧– الاعراف ٥١ –السجدة ١٤ – الجاثية ٣٤
٢٩	النور	٢	النور ٣٥–الزمر ٦٩

المطلب الأول: الصفة الخبرية (الأخذ).

نلحظ ورود أخذ في أكثر من موضع في القرآن الكريم، وبدلالات متنوعة كذلك، ومعنى أخذ في اللغة، نذكر ما قاله ابن فارس : الهمزة والخاء والذال أصل واحد تتفرع منه فروعٌ متقاربة في المعنى. أمّا أخذ فالأصل حَوْز الشيء وجبْيُه وجمعه. تقول أخذت الشيء آخُذه أخذاً. قال الخليل: هو خلاف العطاء، وهو التناول[١] . والأَخذ : هو حَوْز الشيء وتحصيله. وذلك تارة يكون بالتناول؛ نحو قوله تعالى : مَعَاذَ الله أن نَّأْخُذَ إلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتاعَنَا عندَهُ

(١) مقاييس اللغة: ١ / ٦٨.

[سورة :٧٩]، وتارة بالقَهْر؛ نحو قوله تعالى : (لاَ تأْخُذُهُ سِنَةٌ ولاَ نَوْمٌ) [البقرة :٢٥٥]، وقوله تعالى: (وَأَخَذَ الذين ظَلَمُوْا الصيحة) [هود:٦٧] ، وقوله تعالى: (وكذلك أَخْذُ رَبكَ إِذَا أَخَذَ القرى) [هود: ١٠٢] . والاتخاذ يعَدّى إلى مفعولين، ويجرى مجرى الجَعْل؛ نحو قوله تعالى : (لاَ تتخِذُواْ اليهود والنصارى أَوْلِيَآءَ) [المائدة:٥١] ، وقوله تعالى : (وَلَوْ يؤَاخِذُ الله الناس بِظُلْمِهِمْ) [النحل: ٦١] تخصيص لفظ المؤاخذة تنبيه على معنى المجازاة والمقابلة لمَا أخذوه من النعَم، ولم يقابلوه بالشكر[١].

فورود أخذ في سياق الحديث عن أخذ العهود، والمواثيق، هذا معناه ظاهر أما ما يكون معناه خلاف العطاء، وهو التناول، فهو المعني هنا، وكلاهما صفة لله تعالى. لذا سنقصر القول على هذا المعنى الاخير.

وردت الصفة الخبرية أخذ ضمن قوله تعالى: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ [الاعراف : ١٧٢]

ونلحظ أن السياق القرآني يتحدث عن الاخذ في أكثر من موضع قبل مجيء هذه الآية الكريمة، فقد مهد وناسب مجيء الصفة الخبرية (أخذ) بعد ذلك، قال البقاعي ت ٨٨٥ : ولما كان السياق لأخذ المواثيق والأخذ بقوة، ذكر أخذ الذرية من أقوى نوعي الآدمي، وهم الذكور فقال: {من بني آدم}[٢]، والسياق القرآني له أهميته في ابراز والاشارة الى مثل هذه المواضع التي ذكر فيها (أخذ) التي ترشدنا الى مناسبة مجيء الصفة الخبرية بعد ذلك وهي (الاخذ) ضمن قوله تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ رَبكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ..) الآية [الاعراف : ١٧٢]ودلالتها متقاربة والحديث عن أخذ الميثاق ضمن قوله تعالى : (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ) الآية [الاعراف : ١٦٩] ، فقد أخذ الله –عز وجل– على بني اسرائيل الميثاق بأن لا يقولوا على الله إلا الحق، وهم عالمون بذلك الميثاق، لأنهم درسوا ما في الكتاب فبمجموع الأمرين قامت عليهم الحجة. فيتحدث سياق الآية الكريمة عن أخذ الميثاق والعهود الغليظة على بني اسرائيل، ومعنى الميثاق: العد، وهو وصية موسى – عليه السلام– التي بلغها إليهم عن الله تعالى في مواضع كثيرة، وإضافة الميثاق إلى الكتاب على معنى (في) أو على معنى اللام، أي : الميثاق المعروف به، والكتاب توراة موسى، وأن

(١) ينظر المفردات في غريب القرآن : ٦٧، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : ٢ / ٥٧.

(٢) نظم الدرر : ٨ / ١٥٢.

لا يقولوا هو مضمون ميثاق الكتاب، وفحواه فهو على حذف حرف الجر قبل أن الناصبة، والمعنى: بأن لا يقولوا على الله غير الحق[١]، قال الطبري : (يقول تعالى ذكره: "ألم يؤخذ"، على هؤلاء المرتشين في أحكامهم، القائلين: "سيغفر الله لنا فعلنا هذا"، إذا عوتبوا على ذلك "ميثاقُ الكتاب"، وهو أخذ الله العهود على بني إسرائيل، بإقامة التوراة، والعمل بما فيها. فقال جل ثناؤه لهؤلاء الذين قص قصتهم في هذه الآية، موبخًا على خلافهم أمرَه، ونقضهم عهده وميثاقه: ألم يأخذ الله عليهم ميثاق كتابه، ألا يقولوا على الله إلا الحق، ولا يضيفوا إليه إلا ما أنزله على رسوله موسى صلى الله عليه وسلم في التوراة، وأن لا يكذبوا عليه ؟)[٢] . وميثاق الله –عز وجل– وعهده، أولى بالصون والحفظ، وفي هذه القصة (عبرة للمسلمين الذين سرى إليهم كثير من هذا الفساد وغلب عليهم الطمع وحب الدنيا وعرضها الزائل وهم قد درسوا كتابهم الكريم، لكن التحلي بلقب الإسلام والتعلل بأماني المغفرة مع الإصرار على الذنوب اتكالا على الشفاعات والمكفرات– هو الذي غرهم وجعلهم يتمادون في غيهم وكتابهم ينهاهم عن الأماني ، والأوهام وكون الشفاعة لا تقع إلا بإذن الله لمن رضى عنه، كما قال تعالى : «ولا يَشْفَعُونَ إِلَّا لمَنِ ارْتضى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ»)[٣] . فأثر السياق القرآني ظاهر في الكلام عن أخذ الميثاق في أكثر من موضع وموضوع .

ويستمر الحديث عن الأخذ وفي هذا الموضع الاخذ بقوة ، وذلك في قوله تعالى : وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون [الاعراف: ١٧١] وكذلك في هذه الآية الكريمة يتحدث السياق عن الاخذ بقوة لما أنزله الله تعالى والالتزام بأحكام الشريعة بعزم واحتمال للمشاقّ والتكاليف، فان هذه آية أظهرها الله لهم تخويفا لهم، لتكون مذكرة لهم، فيعقب ذلك أخذ العهد عليهم بعزيمة العمل بالتوراة، فكان رفع الطور معجزة لموسى عليه السلام تصديقا له فيما سيبلغهم عن الله من أخذ أحكام التوراة بعزيمة ومداومة [٤]، فسياق الخطاب القرآني متوجه الى بني اسرائيل، من اجل أخذ الميثاق، والعهد عليهم، بعزيمة العمل بالتوراة، فإن هذه القصة قصة رفع الطور عليهم من أمهات قصصهم، وليست مثل قصة القرية الذين اعتدوا في السبت، ولا مثل خبر إيذانهم بمن يسومهم سوء العذاب. فضمائر الجمع كلها هنا مراد بها بنو إسرائيل الذين كانوا مع موسى، بقرينة المقام.[٥]. ولما أنزل الله تعالى لهم التوراة على سيدنا موسى –عليه السلام– وأمرهم بأن

---

(١) التحرير والتنوير : ٩ / ١٦٣

(٢) جامع البيان : ١٣ / ٢١٤

(٣) تفسير المراغي : ٩ / ١٠٠

(٤) ينظر التحرير والتنوير : ٩/ ١٦٥ .

(٥) المصدر السابق : ٩/ ١٦٤ –١٦٥

يأخذوا أحكام التوراة بقوة، فقال له بنو اسرائيل : إن أحكام هذه التوراة شديدة، فخالفوا الميثاق فرفع فوقهم الطور وهو جبل (راسٍ في الأرض، وممسوك كالوتد؛ لذلك يحتاج قبل أن يرفع إلى عملية نزع واقتلاع من الأرض، ثم يأتي من بعد ذلك الرفع، و «نتقا» تعني نزعنا الجبل من مكان إرسائه حتى نرفعه، وقد رفعه الله ليجعل منه ظلة عليهم، أي أن هناكَ ثلاث عمليات: نتق أي نزع وخلع، ثم رفع)[١]، فخالفوا الميثاق، والعهد لهذا السبب رفع فوقهم الطور، وأوقع ذلك في قلوبهم الرعب والخوف، وقوعه بهم، حيث جعله سبحانه ظلة لهم، وهذا يحتاج إلى اتجاه في المرفوع إلى جهة ما. والحق يقول: «وإذ» أي اذكر إذ نتقنا الجبل، أي نزعناه وخلعناه من الأرض، ولا ننزعه ونخلعه من الأرض إلا لمهمة أخرى أي نجعله ظلة، وكان تظليل الغمام رحمة لهم من قبل، وصار الجبل ظلة «عذاب» ؛ لأن ا لحق أنزل لهم التوراة على موسى فقالوا له: إن أحكام هذه التوراة شديدة. وللإنسان أن يتساءل: لماذا كل هذا التلكؤ مع التشريعات التي جاءت لمصلحة البشر؟ . وجاء لهم العقاب من الحق بأن رفع فوقهم الجبل كظلة تحمل التهديد كأنه قد يقع فوقهم { كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وظنوا أَنَّ هُ وَاقِعٌ بِهِمْ} [٢]، وأمرهم الباري سبحانه بأن يأخُذُوا ما آتاهم من أحكام التوراة بِقُوَّةٍ، فقال تعالى: (خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بقُوَّة) وسياق الخطاب القرآني يمهد لذكر الصفة الخبرية الاتية أخذ، بالحديث عن الاخذ بقوة، أي : وقلنا لهم في هذه الحال: خذوا ما أعطيناكم من أحكام الشريعة، بعزم واحتمال لمشاقّ التكاليف، فإن قوة العزيمة في اتباع الحق سبحانه من تقوى القلوب[٣]، قال تعالى: (وَاذْكُرُوا ما فيه لعَلَكُمْ تَتقُونَ) أي : واذكروا ما فيه من الأوامر والنواهي، فإن ذلك يعدّكم للتقوى.

ويجعلها مرجوة لكم، فإن قوة العزيمة في إقامة الدين تزكى النفوس وتهذب الأخلاق، كما أن التهاون فيها يدسّيها ويغريها على اتباع الشهوات قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها. وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها[٤]، فأثر السياق القرآني ظاهر في الحديث عما ألزمهم الله عز وجل بأن يذكروا ما في التوراة من العهود والمواثيق التي أخذها الله تعالى عليهم بالعمل بما فيها كي يتقوا ربهم، فيخافوا عقابه بتركهم العمل به إذا ذكرهم ما أخذ عليهم في الوراة من المَواثيق. وكرر أخذ الميثاق في أكثر من موضع وموضوع في هذا السياق، وهذه المواضع هي العلل التي بينت أسرار ترتيب أجزاء

(١) تفسير الشع اروي : ٧/ ٤٤٣١.
(٢) المصدر السابق : ١ / ٤٤٣١
(٣) ينظر : مفاتيح الغيب : ١٥ / ٣٩٧
(٤) تفسير الم ارغي : ٩/ ١٠١ -١٠٢

الكلام وكشفت مناسبته لورود الصفة الخبرية بعد ذلك[١]، ضمن قوله تعالى : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ [الاعراف : ١٧٢]. ومن هنا يبرز دور السياق القرآني في مناسبة مجيء الصفة الخبرية (أخذ) في هذا الموضع، مع ما ذكر من القرائن السابقة والتي مهدت لهذه المناسبة في التعبير[٢]، وإيثار الأخذ على الإخراج للإيذان بشأن المأخوذ إذ ذاك لما فيه من الإنباء عن الاجتباء والاصطفاء وهو السبب في إسناده إلى اسم الرب بطريق الالتفات مع ما فيه من التمهيد للاستفهام الآتي، وإضافته إلى ضميره عليه الصلاة والسلام للتشريف، وقيل: إن إيثار الأخذ على الإخراج لمناسبة ما تضمنته الآية من الميثاق فإن الذي يناسبه هو الأخذ دون الإخراج [٣] ولا أرى مانعا من توارد الاسباب على هذا الاختيار للفظة الاخذ، ودلالتها على اصطفاء المأخوذ واجتبائه ، مع مناسبتها ما تضمنته من الميثاق والعهود المأخوذة عليهم فيحصل التساوق في علل ترتيب أجزاء الكلام المركز على أخذ المواثيق . حيث أَخذ من ظهر آدم ذَرِّيَّتَهُ وَأَخذَ عليهم العَهْدَ بأنَّه رَبهُم وَأَنْ لَا إلهَ غيره فأَقَرُّوا بذلكَ وَالتزَمُوه، وفيه إشارة إلى أنه أكد عليهم المواثيق وشددها لهم وأمرهم – بالقوة في أمرها، أعطاهم من القوة في التركيب والمزاج ما يكونون به مطيعين لذلك، فهو تكليف بما في الوسع[٤].

المطلب الثاني: الصفة الخبرية (الاسف) .

وردت الصفة الخبرية آسفونا مرة واحدة في القرآن الكريم، ضمن قوله تعالى : فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ الزخرف : ٥٥ .

يتحدث السياق القرآني قبل مجيء الصفة الخبرية آسفونا ضمن الآية الكريمة : فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ الزخرف : ٥٥، عن أمور كثيرة، مهدت في ورود الصفة الخبرية آسفونا ، ففي سرد هذه القصة وما دار فيها من أحداث مهولة، بسبب إغضابهم لله وبالكبر على رسله –عليهم الصلاة والسلام–، حيث كان فرعون وقومه سبباً لأن يتعظ بحالهم من يأتي بعدهم[٥]، فإن المقصود من هذه القصة هو قوله فيها فلما آسفونا انتقمنا منهم

(١) ينظر جامع البيان: ١٣ / ٢١٧

(٢) ينظر: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور ، البقاعي : ١ / ١٤٢ .

(٣) روح المعاني: ٥/ ٩٣ – ٩٤

(٤) ينظر البحر المحيط : ٥ / ٢١٨، ونظم الدرر : ٨ / ١٥٢.

(٥) ينظر : روح البيان، البروسوي : ٨/ ٣٨٠ .

فأغرقناهم أجمعين فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين [١]، والسياق القرآني له أهميته في ابراز والاشارة الى مثل هذه المواضع التي مهدت لان تكون الصفة الخبرية آسفونا احدى المقاصد المهمة ضمن هذه القصة –وكل مقاصد القران مهمة–، إذ اغضاب الله تعالى له عواقب وخيمة على من تسبب في ذلك .

ومن هذه الاسباب التي أغضبت الباري سبحانه، هو تكذيب فرعون وقومه، لسيدنا موسى –عليه السلام–، أي بعدما بعثه الله تعالى، وأيده بالحجج الباهرة، والدالة على صدقه إلى فرعون وأشراف قومه، فقال لهم: إنى رسول من قبل الله إليكم[٢]، قال تعالى : ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين قوله تعالى الزخرف : ٤٦ . فطالبوه بإحضار الحجج البينات على صدق دعواه كما يدل على ذلك،: فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ الزخرف : ٤٧، حيث قابل فرعون وقومه هذه المعجزات الباهرات بالضحك والاستهزاء من تلك المعجزات، بدل من أن يسعدوا بآياتنا وينتهوا وينتفعوا بالحجج على التوحيد والبراءة من الشرك، إذا فرعون وقومه يضحكون. أي كما أن قومك، مما جئتهم به من الآيات والعبر، يسخرون. وهذا تسلية من الله عز وجل لنبيّه صلّى الله عليه وسلّم، عما كان يلقى من مشركي قومه. وإعلام منه له أن قومه من أهل الشرك، لن يعدوا أن يكونوا كسائر. الأمم الذين كانوا على منهاجهم في الكفر بالله وتكذيب رسله. وندب منه نبيّه صلّى الله عليه وسلّم إلى الاستنان بهم، بالصبر عليهم، بسنن أولي العزم من الرسل. وإخبار منه له أن عقبى مردتهم إلى البوار والهلاك. كسنته في المتمردين عليهم قبله، وإظفاره بهم، وإعلائه أمره. كالذي فعل بموسى عليه السلام وقومه الذين آمنوا به. من إظهارهم على فرعون وملئه.[٣] .

ويستمر السياق القرآني بالحديث عن عظم هذه المعجزات الربانية لهذه الاقوام بغية الايمان وسلوك طريق الحق، ويبتعدوا عن الجحود والالحاد ، كي لا يغضبوا الله تعالى، وآيات الله كثيرة وما يريهم الباري سبحانه، أية من آيات العذاب إلا وهي في غاية الكبر والظهور، بحيث تكون أوضح من سابقتها، ويظن الناظر إليها أنها أكبر من غيرها، قال تعالى : وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ الزخرف : ٤٨ . قال الطبري : يقول تعالى ذكره: وما نرى فرعون وملأه آية، يعني: حجته لنا عليه بحقيقة ما يدعوه إليه رسولنا موسى إِلا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا يقول: إلا التي نريه من ذلك أعظم في الحجة عليهم وأوكد من التي مضت قبلها من الآيات، وأدل على صحة ما يأمره به موسى من توحيد الله.

---

(١) التحرير والتنوير : ٢٥ / ٢٢٤ .

(٢) ينظر : تفسير القرآن العظيم، بن كثير : ٧ / ٢٣٠ .

(٣) محاسن التأويل، القاسمي : ٨/ ٣٩٣ .

[1]، فقد أنزل الله تعالى عليهم ألوانا من العذاب، ثم بين العلة في أخذه لهم بذلك وهو رجاء رجوعهم، قال تعالى : وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ يقول: وأنزلنا بهم العذاب، وذلك كأخذه تعالى ذكره إياهم بالسنين، ونقص من الثمرات، وبالجراد، والقمل، والضفادع، والدم . وقوله: لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ يقول: ليرجعوا عن كفرهم بالله إلى توحيده وطاعته، والتوبة مما هم عليه مقيمون من معاصيهم. [2] . وهم أمام البلاء والامتحان، فقد عاينوا ما جاءهم به من الآيات البينات، والدلالات الواضحات، وأخذوا يستغيثون بسيدنا موسى –عليه السلام –ليرفع عنهم البلاء ودعوه بيَا أَيُّهَ السَّاحِرُ، يندرج تحت خطاب التعظيم ، فقد كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر لاستعظامهم علم السحر، ومخاطبتهم موسى بوصف الساحر مخاطبة تعظيم تزلفا إليه لأن الساحر عندهم كان هو العالم وكانت علوم علمائهم سحرية، أي ذات أسباب خفية لا يعرفها غيرهم وغير أتباعهم، ألا ترى إلى قول ملأ فرعون له وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم [الشعراء: ٣٦، ٣٧] . [3]، قال تعالى : وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ الزخرف :٤٩ ويتحدث السياق القرآني عن فرعون وقومه لما أخذهم الله تعالى بالعذاب على يد سيدنا موسى –عليه السلام– وقد سألوه أن يدعو الله بكشف هذا البلاء والعذاب عنهم {بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ} أي بما أخبرنا عن عهده إليك إن آمنا كشف عنا العذاب فاسأله يكشف عنا إننا لمهتدون مؤمنون فدعا موسى فكشف عنهم العذاب، فلم يؤمنوا رغم العهد الذي قطعوه على أنفسهم[4] . فلذلك قال تعالى : فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ العذاب إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ فقد نكثوا عَهدَهُمْ، ونقضوه، وأصروا على كفرهم بإخلاف بعد إخلاف وهذا سبب أخر من الاسباب التي أدت الى غضب الله –عز وجل– عليهم، ولم يقف الامر عند نكث فرعون عهده بالإيمان عند انكشاف البلاء بل زاد من تمرده وعناده وعتوّه، وكذلك خوفاً من إيمان القبط لما رأى من أن ما شاهدوا من باهر الآيات مثله يزلزل ويأخذ بالقلوب، فقد نادى بينهم أنه هو ملك مصر، وصاحب الانهار والخيرات وغيرها كما هو شأن الطغاة من أجل اخافة العامة كي لا يؤمنوا بسيدنا موسى –عليه السلام– [5]، فقال تعالى مخبرا عن تمرد فرعون وعناده : وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ الزخرف : ٥١، ونداء فرعون في قومه يحتمل أن يكون رفع صوته

(١) جامع البيان : ٢١ / ٦١٤.
(٢) جامع البيان : ٢١ / ٦١٤.
(٣) التحرير والتنوير : ٢٥/ ٢٢٨.
(٤) ينظر : نظم الدرر : ١٧/ ٤٤٥ .
(٥) ينظر : المصدر السابق : ٧ / ٣٦ .

بلسانه في ناديه، ويحتمل أن يكون بأن أمر من ينادي في الناس بذلك، فأسند النداء اليه[١] . وسبب هذه المناداة وحججها التي نادى بها أنه أراد أن يبين فضله على موسى، إذ هو ملك مصر، وصاحب الأنهار والنعم، وموسى خامل متقلل لا دنيا له، قال: فلو أن إله موسى يكون حقا كما يزعم، لما ترك الأمر هكذا.[٢]، فضلا عن أن هذه الحجج أمر قريب مشهود لجميع الناس، ويبهرها وتستخفها الإشارة إليه . وأما ملك السماوات والأرض وما بينهما- ومصر لا تساوي هباءة فيه- فهو أمر يحتاج إلى قلوب مؤمنة تحسه، وتعقد الموازنة بينه وبين ملك مصر الصغير الزهيد! والناس المستعبدة المستغفلة يغريها البريق الخادع القريب من عيونها ولا تسمو قلوبها ولا عقولها إلى تدبر ذلك الملك الكوني العريض البعيد! ومن ثم عرف فرعون كيف يلعب بأوتار هذه القلوب ويستغفلها بالبريق القريب تارة وبالتخويف تارة أخرى[٣] .

ونلاحظ تناسق السياق القرآني، من خلال تتابع كلماته، وجمله القرآنية، وانتظامها، واتصالها لتأدية المعنى، وذلك بإدامة التدبر، وإمعان النظر والتفكر في سياق الآية، أو الآيات والربط بينها للوصول إلى المعنى المراد معرفته، عن علاقتها وتمهيدها لمجيء الصفة الخبرية . فبعد أن أخذ فرعون يذكر قومه، ويبصرهم بأسباب البسطة والرياسة في ملكه[٤]، قال تعالى : {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ الزخرف : ٥٢ حيث بيّن فضله على سيدنا موسى -عليه السلام-، قال الطبري : يقوله تعالى ذكره مخبراً عن قيل فرعون لقومه بعد احتجاجه عليهم بملكه وسلطانه، وبيان لسانه وتمام خلقه، وفضل ما بينه وبين موسى بالصفات التي وصف بها نفسه وموسى: أنا خير أيها القوم، وصفتي هذه الصفة التي وصفت لكم أم هذا الذي هو مهين لا شيء له من الملك والأموال مع العلة التي في جسده، والآفة التي بلسانه، فلا يكاد من أجلها يبين كلامه؟.[٥]، فأخذ فرعون يتطاول على أنبياء الله تعالى وهذا مما يغضب الباري -عز وجل- وسيحل عليه عقابه تعالى، وقال تعالى : فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ الزخرف : ٥٣ بعدما تضمن وصف فرعون لسيدنا موسى -عليه السلام- بأنه مهين ولا يكاد يبين أنه مكذب له دعواه الرسالة عن الله فرع عليه قوله: فلولا ألقي عليه أساورة من ذهب ترقيا في إحالة كونه رسولا من الله، وفرعون لجهله

(١) ينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي : ٥/ ٩٣ .
(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، بن عطية : ٥/ ٥٩.
(٣) ينظر : في ظلال القرآن، سيد قطب : ٥/ ٣١٩٣ .
(٤) ينظر: السياق الق رآني و أثره في التفسير دراسة نظرية وتطبيقية من خلال تفسير ابن كثير رسالة ماجستير : ٦٧ .
(٥) جامع البيان : ٢١/ ٦١٧ .

أو تجاهله يخيل لقومه أن للرسالة شعارا كشعار الملوك[١] . حيث أورد فيما يزعم شبهة مانعة له من الرياسة، وهى أنه لا يلبس لبس الملوك، فلا يكون رئيسا ولا رسولا لتلازمهما فى زعمه فقال: فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أي فهلا ألقى ربّ موسى عليه أساور من ذهب إن كان صادقا كما جرت عادتهم بذلك [٢] ، ثم أورد شبهة ثانية وهى أنه ليس له خدم من الملائكة تسير معه، وتعينه، فقال : أَو جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ بمعنى : هلا جاء معه الملائكة متتابعين متقارنين إن كان صادقا، يعينونه على أمره، ويشهدون له بالنبوة، ويمشون معه، كما نفعل نحن إذا أرسلنا رسولا في أمر هامّ يحتاج إلى دفاع، وفيه خصام ونزاع وهو بهذا أوهم قومه أن الرسل لا بد أن يكونوا على هيئة الجبابرة، أو يكونوا محفوفين بالملائكة. [٣] .

ويعلل سياق الخطاب القرآني، سرعة استجابة قوم فرعون له، ومتابعته، حيث إن هذه الخدع قد انطلت عليهم، وسحرت ألبابهم، لغفلتهم، فَأَطاعُوهُ فيما أمرهم به، إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ، فلذلك سارعوا إلى طاعة ذلك الفاسق الغوي، فاعترفوا بربوبيته، وكذبوا بنبوة موسى لضعف عقولهم[٤]، فقال تعالى : فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ الزخرف : ٥٤ . وقولهاستخف قومه طلب منهم الخفة في مطاوعته على أن السين للطلب على حقيقتها، ومعنى الخفة، السرعة لإجابته ومتابعته، كما يقال هم خفوف إذا دعوا وهو مجاز مشهور وقال ابن الأعرابي استخف أحلامهم أي وجدهم خفيفة أحلامهم أي قليلة عقولهم فصيغة الاستفعال للوجدان كالأفعال كما يقال أحمدته وجدته محمودا وفي نسبته ذلك للقوم تجوز [٥]، وقوله : فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ فقد قبلوا قوله وَكَذَّبُوا سيدنا مُوسَى –عليه السلام– لأنهم كانوا قوما ذوى ضلال وغىّ ومن ثم أسرعوا إلى تلبية دعوة ذلك الفاسق الغوىّ[٦] .

ثم ذكر جزاءهم على ما اجترحوا من تكذيب رسوله على وضوح الدليل وظهور الحق، فقال تعالى : فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ الزخرف : ٥٥.

نلاحظ عرض السياق القرآني لعدة أسباب وعلل مهدت لمجيء هذه الصفة الخبرية، وهي قوله آسَفُونَا بإسنادها الى الباري –سبحانه وتعالى – حيث تعلن انتهاء مرحلة الابتلاء والإنذار والتبصير وعلم الله أن القوم لا يؤمنون وعمت الفتنة فأطاع القوم فرعون الطاغية المتباهي في

---

(١) ينظر : معاني القرآن وإعرابه، الزجاج : ٤/ ٤١٥، والتحرير والتنوير : ٢٥ / ٢٣٢ .
(٢) تفسير المراغي : ٢٥ / ٩٩.
(٣) المصدر السابق : ٢٥ / ٩٩ –١٠٠ .
(٤) ينظر: إعراب القرآن، أبو جعفر النَّحَّاس : ٤ / ٧٦، وتفسير المراغي: ٢٥ /١٠٠.
(٥) روح المعاني : ١٣ / ٩١ .
(٦) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود : ٨/ ٥٠.

خيلاء، وعشت أبصارهم، وعميت بصائرهم عن الآيات البينات والنور فحقت كلمة الله وتحقق النذير عليهم[١]، وقوله آسَفُونَا، قال الفراء ت ٢٠٧ هـ : وقوله: فَلَمَّا آسَفُونا يريد: أغضبونا [٢]، حيث يتحدث الله سبحانه عن نفسه في مقام الانتقام والتدمير إظهارا لغضبه ولجبروته في هذا المقام. فيقول : فَلَمَّا آسَفُونا .. بمعنى : فلما أغضبونا أشد الغضب.. انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ .. أي : فرعون وملأه وجنده . وهم الذين غرقوا على إثر موسى وقومه وجعلهم الله سلفا يتبعه كل خلف ظالم وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ الذين يجيئون بعدهم، ويعرفون قصتهم، فيعتبرون[٣]. وهكذا تلتقي الحقيقة في عرض القصة، بالتناسق بين الحلقة المعروضة والحال القائمة والغاية من إيرادها في هذه الحال القائمة. وتصبح القصة بهذا أداة للتربية في المنهج الإلهي الحكيم. وبذلك يكون المقصود من إعادة قصة موسى عليه السلام وفرعون في هذا المقام تقرير الكلام الذي تقدم، وذلك لأن كفار قريش طعنوا في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بسبب كونه فقيرا عديم المال والجاه، فبين الله تعالى أن موسى عليه السلام بعد أن أورد المعجزات القاهرة الباهرة التي لا يشك في صحتها عاقل أورد فرعون عليه هذه الشبهة التي ذكرها كفار قريش فقال: إني غني كثير المال والجاه، ألا ترون أنه حصل لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي، وأما موسى فإنه فقير مهين وليس له بيان ولسان، والرجل الفقير كيف يكون رسولا من عند الله إلى الملك الكبير الغني، فثبت أن هذه الشبهة التي ذكرها كفار مكة وهي قولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم [الزخرف: ٣١] وقد أوردها بعينها فرعون على موسى، ثم إنا انتقمنا منهم فأغرقناهم، والمقصود من إيراد هذه القصة تقرير أمرين أحدهما: أن الكفار والجهال أبدا يحتجون على الأنبياء بهذه الشبهة الركيكة فلا يبالى بها ولا يلتفت إليها والثاني: أن فرعون على غاية كمال حاله في الدنيا صار مقهورا باطلا، فيكون الأمر في حق أعدائك هكذا، فثبت أنه ليس المقصود من إعادة هذه القصة عين هذه القصة، بل المقصود تقرير الجواب عن الشبهة المذكورة، وعلى هذا فلا يكون هذا تقريرا للقصة البتة وهذا من نفائس الأبحاث والله أعلم.[٤] .

المطلب الثالث: الصفة الخبرية (الخلة) .

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن : ٥/ ٣١٩٤ .

(٢) معاني القرآن، الفراء : ٣٥، وينظر : جامع البيان : ٢١/ ٦٢١ .

(٣) ينظر : في ظلال القرآن : ٥/ ٣١٩٤ .

(٤) مفاتيح الغيب : ٢٧/ ٦٣٦ .

وردت هذه الصفة الخبرية الخلة في موضع واحد من القرآن الكريم ضمن قوله تعالى : وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا [النساء : ١٢٥] .

جاء في السياق القرآني عدة حيثيات للخلة مهدت لمجيء الصفة الخبرية الخلة، من حيث أن سيدنا إبراهيم –عليه السلام– اتبع أفضل دين، وقد أسلم وجهه لله –سبحانه وتعالى–، وكان محسناً، واتبع الملة، وكان حنيفاً مسلما، وهذه الصفات وغيرها جعلت منه –عليه السلام– خليلا لله تعالى[١] . ونلحظ تدرج الخطاب القرآني في الحديث عن أسباب النجاة في الاخرة ولا تكون بالأماني وإنما بالإيمان والعمل معا، قال تعالى : لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا النساء : ١٢٣ ، حيث يتحدث الخطاب القرآني محذرا أن نكون مثل أهل الكتاب، فقد كان الشيطان يعدهم ويمنيهم، ويدخل في تلك الأماني ما كان يمنّيه أهل الكتاب من الغرور بدينهم، إذ كانوا يرون أنهم شعب الله الخاص، ويقولون: إنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات، وقد سرى لهم هذا الغرور من اتكالهم على الشفاعات وزعمهم أن فضلهم على غيرهم من البشر بمن بعث فيهم من الأنبياء، فهم يدخلون الجنة بكرامتهم لا بأعمالهم[٢]. وجاء التحذير من ذلك في هذه الآيات الكريمات أن نكون مثلهم، وبينت حقيقة الايمان ليس بالانتساب اليه فقط وانما يجب ان يقترن بالعمل، فإن الجزاء إنما يكون على العمل، لا على التمني والغرور: فليس أمر نجاتكم ولا أمر نجاة أهل الكتاب منوطا بالأماني في الدين، فالأديان لم تشرع للتفاخر والتباهي، ولا تحصل فائدتها بالانتساب إليها دون العمل بها. وجاء التأكيد بعد ذلك وبيّنه بقوله تعالى : مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ أي إن من يعمل سوءا يلق جزاءه، لأن الجزاء بحسب سننه تعالى أثر طبيعي للعمل، لا يتخلف في اتباع بعض الأنبياء وينزل بغيرهم كما يتوهم أصحاب الأماني والظنون، فعلى الصادق في دينه أن يحاسب نفسه على العمل بما هداه إليه كتابه ورسوله، ويجعل ذلك المعيار في سعادته، لا أن يجعل تكأته أن هذا الكتاب أكمل، ولا أن ذلك الرسول أفضل[٣] .

وإنما يكون المدار في ذلك على الإيمان والأعمال كما قال تعالى: وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً أي ومن يعمل كل ما يستطيع عمله من الأعمال التي تصلح بها النفوس في أخلاقها وآدابها وأحوالها الاجتماعية، سواء كان العامل ذكرا أو أنثى وهو مطمئن القلب بالإيمان– فأولئك العاملون المؤمنون بالله

(١) ينظر: التفسير الميسر: ٩٨ .

(٢) ينظر: تفسير المراغي : ٥/ ١٦٤ .

(٣) ينظر: المصدر نفسه .

واليوم الآخر يدخلون الجنة بزكاء أنفسهم وطهارة أرواحهم ولا يظلمون من أجور أعمالهم شيئا ولو حقيرا كالنقير. وهذا كله تدرج وتوطئة في الحديث عن أَمْرَ النَّجَاةِ بَل السَّعَادَةِ وهو مَنُوطٌ بِالْعَمَلِ وَالْإِيمَانِ مَعًا، أَتْبَعُ ذَلِكَ بِبَيَانَ دَرَجَةَ الْكَمَالِ فِي ذَلِكَ وَهُوَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، قال تعالى : وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ النساء : ١٢٥ فإن دِينَ الْإِسْلَامِ مَبْنِيٌّ عَلَى أَمْرَيْنِ: الاعْتِقَادُ وَالْعَمَلُ: أَمَّا الاعْتِقَادُ فَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ أَسْلَمَ وَجْهَهُ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ الانْقِيَادُ وَالْخُضُوعُ. وَالْوَجْهُ أَحْسَنُ أَعْضَاءِ الْإِنْسَانِ، فَالْإِنْسَانُ إِذَا عَرَفَ بِقَلْبِهِ رَبَّهُ وَأَقَرَّ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَبِعُبُودِيَّةِ نَفْسِهِ فَقَدْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ، وَأَمَّا الْعَمَلُ فَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَيَدْخُلُ فِيهِ فِعْلُ الْحَسَنَاتِ وَتَرْكُ السَّيِّئَاتِ [١] ، فيتوجب على ان ينقاد بقلبه وسائر جوارحه لله تعالى وحده، وهو محسن، واتبع دين إبراهيم وشرعه، مائلا عن العقائد الفاسدة والشرائع الباطلة، إذ لا أحد أحسن دينا ممن جعل قلبه سلما خالصا لله وحده لا يتوجه إلى غيره في دعاء ولا رجاء، ولا يجعل بينه وبينه حجابا من الوسطاء والحجاب، بل يكون موحدا صرفا لا يرى في الوجود إلا الله وآثار صفاته وسننه في ربط الأسباب بالمسببات، فلا يطلب شيئا إلا من خزائن رحمته، ولا يأتي بيوت هذه الخزائن إلا من أبوابها وهي السنن والأسباب ولا يدعو معه ولا من دونه أحدا في تيسير هذه الأسباب، وتسهيل الطرق وتذليل الصعاب، وهو مع هذا الإيمان الخالص، والتوحيد الكامل محسن في عمله، متقن لكل ما يأخذ به، متخلق بأخلاق الله الذي أحسن كل شيء خلقه، وأتقن كل شيء صنعه[٢] ، وفي هذا الموضع يصرح السياق القرآني باتباع دين سيدنا إبراهيم –عليه السلام–، وشرعه، مائلا عن العقائد الفاسدة والشرائع الباطلة ، قال تعالى : وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، فشرع الخطاب القرآني بالإشارة والاشادة بالصفات التي تميز بها سيدنا إبراهيم –عليه السلام– ، منها انه كان حنيفا أي : مائلا عن الشرك أو متعبدا ، واتبع إبراهيم في حنيفيته التي كان عليها، بميله عن الوثنية وأهلها، وتبريه مما كان عليه أبوه وقومه منها، وقد اصطفى الله إبراهيم –عليه الصلاة والسلام– واتخذه صفياً من بين سائر خلقه. وفي هذه الآية، إثبات صفة الخُلّة لله –تعالى– وهي أعلى مقامات المحبة، والاصطفاء[٣]. فقد اصطفاه لتوحيده وإقامة دينه في زمن وبلاد غلبت عليها الوثنية، وقوم أفسد الشرك عقولهم ودنس فطرتهم، فكان إبراهيم خالصا مخلصا لله وبهذا المعنى سماه الله خليلا، وإذا أراد الله أن يكرم عبدا من عباده أطلق عليه ما شاء، وإلا فإن المعنى المتبادر من لفظ الخليل في استعمالنا له يتنزه الله عنه، فإن الخلة بين الخليلين إنما تتحقق بشيء من المساواة بينهما،

(١) مفاتيح الغيب :١١/ ٢٢٩ .

(٢) تفسير المنار: محمد رشيد رضا : ٥/ ٣٥٧ .

(٣) ينظر: التفسير الميسر: ٩٨ .

وهي من مادة التخلل الذي هو بمعنى الامتزاج والاختلاط [١] ، وبعد ذكر أهمية الايمان والعمل في حياة الانسان ويستمر السياق القرآني بذكر شَرَط حُصُول النَّجَاةِ وَالْفَوْزَ بِالْجَنَّةِ بِكَوْنِ الْإِنْسَانِ مُؤْمِنًا شَرَحَ الْإِيمَانَ وَبَيَّنَ فَضْلَهُ وإِذَا عَرَفَ بِقَلْبِهِ رَبَّهُ وَأَقَرَّ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَبِعُبُودِيَّةِ نَفْسِهِ فَقَدْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للَّه، والقدوة في هذا الطريق سيدنا إبراهيم –عليه السلام– ويأتي الحق من بعد ذلك بالغاية الواضحة {واتخذ الله إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} فما هي حيثيات الخُلّة؟ لأنه يتبع أفضل دين، ويسلم لله وجهه، وكان محسناً، واتبع الملة، وكان حنيفاً، هذه هي حيثيات الخُلّة. وكلها كانت صفات سيدنا إبراهيم عليه السلام. [٢] فكل هذه المعاني كانت مناسبة للحديث وذكر أعلى مقام مقامات المحبة، والاصطفاء وهي إثبات صفة الخُلّة لله –تعالى– وهي ضمن قوله تعالى : واتخذ الله إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً .

(١) تفسير المنار: محمد رشيد رضا : ٥/ ٣٥٨ .

((٢)) تفسير الشعراوي : ٥/٢٦٧٠ .

الخاتمة

بعد انقضاء هذه الجولة الممتعة بين مفاصل هذا البحث، والاطلاع على مجموعة مهمة من المصادر والمراجع المتعلقة بالبحث أود أن أسجل أهم النقاط البارزة التي وردت فيه :

١-استهل البحث الحديث عن القسم الاول من التمهيد وهو تعريف السياق لغة واصطلاحا وأهميته وأنواعه وهي أربعة : سياق الآية والمقطع والسورة والقرآن الكريم . ودرست هذه الانواع معززة بالأمثلة .

والقسم الثاني : تناول تعريفا بالصفات الالهية مع بيان الفرق بينها وبين الاسماء . وكذلك الفرق بين الصفة والوصف والنعت والاسم . ثم تعريف بالصفات الخبرية .

٢-كشف لنا البحث عن مجموعة من الصفات الخبرية ذات المعاني الموهمة بالنقص والتغير والتشبيه وردت في مواطن متعددة من القران الكريم .

٣- وكشفت لنا الدراسة عن أهمية السياق القرآني في الوقوف على العلل والاسباب التي وطأت ومهدت لورود الصفات الخبرية ويعد من اهم القرائن التي يثبت بها المعنى وتكشف عن مراده .

ثبت المصادر

- الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ت ٩١١هـ، تحـ: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م .
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى ت ٩٨٢هـ دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٩٩٩م .
- الأسماء والصفات ، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي ت: ٤٥٨هـ ، تحـ: عبد الله بن محمد الحاشدي ، ط١ ، مكتبة السوادي، جدة – المملكة العربية السعودية، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣ م .
- إعراب القرآن، أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل ت ٣٣٨هـ،وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١ هـ .
- الإمام في بيان أدلة الأحكام، عز الدين بن عبد العزيز بن عبد السلام السلمي ، تحـ: رضوان مختار بن غربية، ط١ ، دار البشائر الاسلامية –بيروت ، ١٤٠٧هـ .
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل : أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي ت٧٩١هـ. تحقيق : عبد القادر عرفان العشّا . دار الفكر، بيروت، ١٤١٦هـ=١٩٩٦م .
- تاج العروس من جواهر القاموس : أبوالفيض محمد مرتضى الحسيني الزَّبيدي ت١٢٠٦هـ . تحـ: جماعة من المحققين. ط٢، مطبعة حكومة الكويت، ١٤١٥هـ=١٩٩٤م .
- التحرير والتنوير المسمى بتحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي ت١٣٩٣هـ، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤ م .
- التسهيل لعلوم التنزيل : محمد بن احمد بن جزيّ الكلبيّ ت٧٤١هـ . تحقيق: رضا فرج الهَمامي . ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٣هـ=٢٠٠٣م .
- تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي ت١٤١٨هـ، مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧ م .
- تفسير القرآن الحكيم المسمى بتفسير المنار ، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين القلموني الحسيني ت: ١٣٥٤هـ ، ط١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م .
- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ت ٧٧٤هـ، تحـ: سامي بن محمد سلامة، ط٢، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م .
- تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي ت١٣٧١هـ، ط١، ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٦٥ هـ – ١٩٤٦ م .

- التفسير الميسر ، نخبة من أساتذة التفسير، ط٢ ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف – السعودية ، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩ م .
- تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل، محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، القاضي أبو بكر الباقلاني المالكي ت: ٤٠٣هـ ، تحـ: عماد الدين أحمد حيدر ، ط١ ، مؤسسة الكتب الثقافية – لبنان ، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م .
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الشهير بتفسير الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ت٣١٠هـ . تحقيق: د.عبدالله بن محسن التركي . ط١، دار هجر، القاهرة، ١٤٢٢هـ=٢٠٠١م .
- حاشية الامام البيجوري على جوهرة التوحيد ، برهان الدين ابراهيم البيجوري ت ١٢٧٦هـ ، تحـ: د. علي جمعة محمد الشافعي ،ط١، دار السلام ، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م .
- دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم ، عبدالوهاب أبو صفية الحارثي ، ط١ ، دائرة المكتبات والوثائق المدنية ، عمّان ، ١٤٠٩هـ .
- روح البيان : إسماعيل حقي بن مصطفي البروسوي ت١١٢٧هـ . دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت .
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسيت١٢٧٠هـ،تحـ:علي عبد الباري عطية، ط١، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٥هـ.
- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب ، جمال الدين أبو محمد عبدالله بن يوسف ابن هشام الأنصاري ت٧٦١هـ. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد . ط١١، دار الاتحاد العربي للطباعة، القاهرة، ١٣٨٨هـ=١٩٦٨م.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي ت٣٩٣هـ، تحـ: أحمد عبد الغفور عطار، ط٤، دار العلم للملايين – بيروت
- ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م .
- الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري ت ٣٩٥هـ، تحـ: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، ١٩٧٩م .
- فضائل القرآن، أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي ، تحـ: مروان العطية ومحسن خرابة ووفاء تقي الدين ، ط٢ ، دار ابن كثير –لبنان ، ١٤١٥هـ–١٩٩٥م .
- في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي ت ١٣٨٥هـ، ط١٧، دار الشروق – بيروت– القاهرة، ١٤١٢ هـ .

- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية : أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي ت١٠٩٤هـ . تحقيق: د. عدنان درويش، ومحمد المصري . ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ=١٩٩٨م .
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري ت ٧١١هـ، ط٣، دار صادر – بيروت ١٤١٤ هـ .
- محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي ت: ١٣٣٢هـ ، تحـ: محمد باسل عيون السود، ط١،دار الكتب العلميه – بيروت، ١٤١٨ هـ .
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي ت٥٤٢هـ، تحـ: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٢٢ هـ .
- معاني القرآن ، أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء ت٢٠٧هـ . تحقيق: محمد علي النجار، وأحمد يوسف نجاتي، ود. عبد الفتاح إسماعيل شلبي . ط٢، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٠م .
- معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج ت٣١١هـ، ط١، عالم الكتب – بيروت، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .
- مفاتيح الغيب، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين الرازي ت٦٠٦هـ، ط٣، دار إحياء التراث العربي – بيروت ١٤٢٠ هـ .
- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد ت٥٠٢هـ، تحـ: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة– لبنان، ١٩٨٨ م .
- مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحـ: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م .
- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل ، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر المتوفى: ٧٠٨هـ ، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، د.ت.
- الموافقات في أصول الفقه ، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي ت: ٧٩٠هـ ، تحـ: عبد الله دراز ، دار المعرفة – بيروت ، د.ت .
- النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن ، د. محمد عبد الله درّاز . ط٢، دار القلم، الكويت، ١٣٩٠هـ=١٩٧٠م .
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي ت٨٨٥هـ، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٤٠٤هـ–١٩٨٤م .

الرسائل والأطاريح :

- السياق القرآني واثره في التفسير دراسة نظرية وتطبيقية من خلال تفسير ابن كثير ، عبدالرحمن عبدالله المطيري ، رسالة ماجستير ، جامعة أم القرى ، ١٤٢٩هـ ، ٢٠٠٨م .
- السياق القرآني وأثره في تفسير المدرسة العقلية الحديثة، سعيد محمد الشهراني ، رسالة دكتوراه ، جامعة أم القرى، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م .